عدد ممتاز

قطر.. والصناعة الواعدة

جمادى الأول ١٤٠٨ هـ - يناير (كانون الثاني) ١٩٨٨

العربي

• مالطة.. لسان عربي وقلب أوروبي

• "الكمبيوتر" وعصر جديد للغة العربية

البيريليوم معدن العصر

• هدية العدد:

أهم الإنجازات العلمية في القرن العشرين

"العربي" في متحف بيكاسو باريس

الحروب الصليبية
ضد المغرب العربي

بقلم : عبد الكريم غلاب*

بعض ما هو شائع ومدوّن عن الحملات الصليبية

أنها كانت تجعل من المشرق العربي مقصدا لها .

إلا أن هذا المقال

يجتهد في القول بأن حملات صليبية أخرى شنت على المغرب العربي أيضا ،

وأن آثارها بل ووجودها المادي الحي ما زال مستمرا !

اعتاد المؤرخون أن يكتبوا تاريخ الأمة العربية ممزقا ، كما تصوروا الوطن العربي لا سيما المتأخرين منهم . والتاريخ الاسلامي لم يكتب كمنظومة تاريخية ، يُعدها الغرب في المغرب ، ويُعدها الشرقي في اندونيسيا ، لكن كل قطر قد كتب تاريخه ، ومن يكتبون عن منطقة أخرى غير التي وجدوا فيها يكتبون ما يريدون من تاريخ ، دون أن يفكروا في مدى ارتباطه حتى بتاريخ بلادهم ، وهكذا وجد عندنا مثلا : تاريخ فتح العرب لمصر ، وتاريخ فتح العرب للمغرب ، وفتح العرب لبلاد الفرس ، كما وجد عندنا مثلا : تاريخ الحروب الصليبية الذي لا يتحدث إلا عن الفترة التي هاجم فيها الصليبيون بلاد الشام ومصر ، ولم يهم كتّاب هذا التاريخ قط أن جزءا مهما من الهجمات الصليبية على الاسلام حدثت في المغرب ، وأن حروبا طاحنة مرت بها هذه البلاد ، من جراء أطماع الصليبيين في القضاء على الاسلام في المغرب ، وأن هذه الحروب كانت جزءاً مكملا للهجوم الصليبي على المشرق

* مدير جريدة العلم ـ المغرب

العربي الاسلامي ، فقد انطلق الهجوم هنا وهناك من نفس المنطلق ، وكانت له نفس الأبعاد ، حقق منها ما استطاع ، وتخلف عن تحقيق ما لم يستطع ، واهزم فيها العرب والمسلمون ، ثم انتصروا ، وأجلوا الصليبيين عن بلادهم ، وما تزال بقية منهم شاهدة على هذا التاريخ في مدينتين ، لاحداهما أثر مهم في الحضارة الفكرية والسياسية الاسلامية ، وهما سبتة ومليلية اللتان تتحركان الآن للتحرر ، والانضمام إلى وطنهما الأصلي المغرب .

حكاية يعقوب المنصور الموحدي

يعرف تاريخ الحروب الصليبية المشرقية صلة مهمة بالمغرب الاسلامي (على مستوى الحملات الصليبية) تتمثل - حسب ما يرويه التاريخ - باستعانة صلاح الدين بيعقوب المنصور ، أشهر ملوك الدولة الموحدية في المغرب الكبير والأندلس (حكمه من سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٢م حتى ٥٩٥هـ / ١١٩٧ م) . يروي المؤرخون أن صلاح الدين استعان بيعقوب المنصور ، ويضيفون إلى ذلك أن يعقوب تقاعس عن إنجاده ، والمؤرخون القدماء يلجأون إلى بعض التعليلات التي لا تنتمي إلى منطق سليم ، ولا تستقيم مع عقلية أولئك الرجال الذين قاموا بأحداث مهمة في تاريخ الاسلام .

تقول رواية بعض المؤرخين إن صلاح الدين لم يلقبه في الرسالة التي طلب فيها النجدة بلقب أمير المؤمنين ، فغضب المنصور لذلك ، ولم ينجده .

والواقع أن يعقوب المنصور كان يعاني مشكلتين أساسيتين ، لا تقلان عن المشكلة الصليبية التي يعانيها صلاح الدين ، فقد كانت الامارات النصرانية في شمال اسبانيا والبرتغال تهاجم أطراف الأندلس ، وقد استمر المغرب يقاوم هذا الزحف النصراني في عهد المرابطين ، ثم في عهد الرواد الموحدين مثل عبد المؤمن بن علي ، ويوسف بن عبد المؤمن والد يعقوب . وكان إلى جانب ذلك يعاني مشكلة أخرى ، هي تمرد بعض الولاة في الامبراطورية الواسعة ، وكان عليه - والنصرانية تزحف من الشمال - أن يعيد الأمن إلى أطراف مملكته ، ولذلك لم يستطع أن يستجيب لدعوة صلاح الدين .

ثم ان هناك سبباً آخر ، يتعلق بصلاح الدين نفسه ، فقد روى المؤرخون أن مؤسس الدولة الأيوبية طمع في أن تشمل دولته بلاد المغرب ، فبعث بقراقوش ليحتل طرابلس سنة ٥٦٨هـ ، وبدأ بناويه السلطة المغربية في تونس ، في وقت كان المغرب فيه مشغولا بمواجهة النصرانية الزاحفة على الأندلس كما سنرى . كان يعقوب المنصور إذن يخشى أن يوزع قواته وأساطيله في شرق الوطن العربي وغربه في مثل هذا الوقت الحرج .

ضربات من الشرق والغرب

كانت الأندلس - حينئذ - ضعيفة ممزقة بين ملوك الطوائف . وقد وصف ابن الخطيب وزير الأندلس ومؤرخها وأديبها حال الأندلس حينذاك التي ربما كانت تحكي حالنا الآن ، في شطر من بيت في منظومته « رقم الحلل » فقال ساخرا :

* وصاح فوق كل غصن ديك *

واجه هذا الحلف الاسلامي حلفا نصرانيا قويا ، ضم إلى جانب الفونسو ملك قشتالة امانشو رامبرث ، ملك ارغون الذي كان يحاصر طرطوشة ، من أعمال الأندلس وكان نيرنجار ريموند يتأهب لغزو بلنسية ، فجمع الفونسو قوات من مختلف الامارات المسيحية في شمال اسبانيا ووسطها ، من جليقية ، وليون ، وبسكونية واشتوريش ، وقشتالة ، وحاصر بهذه القوات سرقسطة ، وحينما علم يعبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس استنجد بدول مسيحية أخرى ، فأنجدته الامارات الفرنسية المجاورة لاسبانيا بقوات كبيرة العدد والعدة .

وتلاقت القوتان ، الاسلامية بقيادة يوسف بن تاشفين ، والنصرانية بقيادة الفونسو ، في سهل الزلاّقة ، على مقربة من « بطليوس » ، وأحاطت القوات الاسلامية بجيوش المسيحيين ، فانهزم الفونسو ، وانتصر المسلمون في معركة رهيبة مصيرية ، قررت مصير الاسلام في الأندلس ، واستمر المسلمون يثبتون وجودهم في كثير من المعاقل ، مدة أربعة قرون أخرى .

كانت تلك المعركة في رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر ١٠٨٦ م) ، وقد أصبحت الأندلس بعد هذه الموقعة تابعة للمغرب ، لأن أمراءها لم يكونوا على استعداد لحكمها ، والدفاع عنها ، والوقوف في وجه الحملات الصليبية المتوالية التي كانت تتجهز على بعض أطرافها . وكما كانت الحملات الصليبية مستمرة على المشرق العربي الاسلامي كانت الحملات الصليبية على المغرب الاسلامي العربي مستمرة أيضا ، وكانت الدول النصرانية تنتهز فرصة دورات الضعف في الدولة الاسلامية لتجدد نفسها ، وتقوم بحملاتها ، وحينما ضعفت دولة المرابطين ثم انهارت لتخلفها دولة الموحدين قامت الدول النصرانية في شمال اسبانيا بإعادة الكرة على الأندلس ، وهذا ما تسميه الرواية الغربية « حروب الاسترجاع » ، فما كادت الدولة تستقر حتى وجدت نفسها أمام مسؤولية جديدة ذات شقين :

أولهما تمرد الأمراء والحكام الاقليميين الذين نصبهم المرابطون لحكم المناطق الأندلسية التابعة لدولة المغرب ، أو كانوا يحكمونها بالوراثة ، وقد اضطر عبدالمؤمن بن علي المؤسس الحقيقي للدولة إلى الحرب ، لاستعادة نفوذ دولته على مختلف المناطق المتمردة في الأندلس ، وهو تمرد كان الصليبيون يتأهبون لاستغلاله في هجوم جديد ، وقد انتهزوا فرصة تجدد التمرد في إحدى المدن ـ « المرية » ـ فاستولى عليها الفونسو السابع ملك قشتالة .

كان الأمراء والحكام الاقليميون الذين استمروا على خلافهم وتمردهم أحيانا على الدولة ـ في محاولة للاستقلال بإماراتهم ـ يحدثون مصاعب للامبراطورية الاسلامية التي اتسعت في عهد الموحدين ، فشملت المغرب الكبير ، حتى حدود مصر ، وشملت كل الأندلس أيضا ، بعد أن استرجعوا « المرية » من يد النصارى في معركة ضارية ، حطم فيها النصارى ما أبقته الحرب من المدينة عند جلائهم عنها .

رغم قوة الموحدين لم ييأس الصليبيون من غزو الأندلس بل كانوا يغيرون من حين لآخر على أطرافها فيحتلون مدينة أو منطقة ، ثم لا تلبث الجيوش المغربية الاسلامية أن تطردهم منها .

وكانت أعظم المعارك التي خاضتها الدولة الاسلامية الموحدية ضد الهجمات الصليبية هي المعركة التي خاضها يعقوب المنصور الموحدي المغربي ، وتعرف في التاريخ باسم معركة « الأرك » (٥٩٣ هـ ـ ١١٩٥م) ، وبانتصار المغرب في هذه المعركة عادت للأندلس مكانتها ، واستمرت فيها دولة الاسلام حتى سقط آخر معقل منها وهو « غرناطة » في يد الصليبيين بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون (٨٩٧ هـ ـ ١٤٩٢ م) .

في هذه القرون الثلاثة عانت دولة الاسلام من هجمات الصليبيين كثيراً فكانت موقعة « العُقاب » سنة ٦٠٩هـ ـ ١٢١٢م ، وقد انهزمت دولة الاسلام عندما واجهت حلفاً خطيراً من الامارات النصرانية ، وهو حلف قشتالة وأراجون ونافار والبرتغال .

التطويق الصليبي للمغرب

كانت موقعة العقاب بداية النهاية لدولة الموحدين ، ذلك أن النصر أو الهزيمة في الحروب ضد الصليبيين هو الذي كان يعلي من شأن الدول المغربية أو يحط منه ، ويتكرر هذا النموذج في دولة المرينيين كما سنرى ، على أن الدولة التي خلفت الموحدين في المغرب ـ دولة المرينيين ـ لم تتخلف عن مواجهة الزحف الصليبي على الأندلس ، وعن صد طموحهم إلى المغرب ، فقد اجتازت جيوش المغرب بقيادة السلطان يعقوب بن عبد الحق المضيق مرة أخرى ، لمساعدة بني نصر على صد الهجمات الصليبية على

الممالك الاسلامية ، واستقر غازيا في الأندلس من سنة ٦٦٨ هـ حتى سنة ٦٧٤ هـ ١٢٧٥م ، واستمرت الحروب الصليبية حتى سقط آخر معقل للمسلمين في الأندلس سنة ١٤٩٢ م كما سبق أن قلنا .

كانت الأندلس جغرافيا وسياسيا تمثل الجزء الشمالي لأقصى الممالك الاسلامية في المغرب الاسلامي ، وكانت الممالك والامارات النصرانية في وسط اسبانيا وشمالها تعتبر المغرب حصن الاسلام العتيد ، ولا يمكن أن يستقر للنصرانية كيان إلا إذا تحول المغرب إلى شعب مسيحي ، وتحت سلطة مملكة مسيحية ، وقد قويت بينهم هذه النظرية بعد سقوط الأندلس ، ومطاردة المسلمين فيها ، والقضاء على من بقي منهم ، وهم الذين تسميهم الرواية المسيحية بالموريسكيين ، ومن لم يقتل منهم أرغم على التنصر والتنكر لاسلامه . لذلك لا نستغرب إذا رأينا أن الحروب الصليبية قد انتقلت إلى المغرب ، فالهجوم الصليبي قد أصبح يستهدف تطويق المغرب من شواطئه الشمالية والغربية ، والدفاع عن الاسلام قد تطلب تجنيد كل قوى المغرب لصد العدوان .

وتبرز في هذا الموضوع عدة حقائق تثير لنا الطريق ، لتصور خطورة التهديد الصليبي للاسلام في الغرب الاسلامي .

أولاها : أن الحروب ضد الاسلام في الأندلس ـ وقد أشرنا إلى نماذج منها ـ لم تكن حروب « استرجاع » كما يعبر كثير من المؤرخين ، ذلك أن الأندلس لم تكن قبل دخول الاسلام إليها جزءا من الممالك النصرانية التي تضافرت على احتلالها ، لأن وسط شبه الجزيرة الايبيرية وشمالها كانت تتقاسمه مجموعة من الممالك والامارات المسيحية ، منها مملكة قشتالة ـ وهي أكبرها جميعا ـ وأرغون ، وجليقية ، وليون ، وبسكونية ، واشتوريش ومملكة البرتغال ونافار .

ولذلك لا يمكن أن نسمي هذه الحروب حروب استرجاع إلا أن يقصد بذلك الاسترجاع لخطيرة النصرانية ، لأن الأندلس لم تكن أرض المهاجرين ، وما تزال حتى الآن تشعر باستقلاليتها عن اسبانيا ، وإنما كانت حروب غزو صليبي ضد الاسلام الذي بنى دولة عظمى منذ الفتح الاسلامي بقيادة طارق بن زياد المغربي ، وموسى بن نصير المشرقي .

ثانيتها : أن موقع المغرب الجغرافي كان يوحي لزعماء الصليبيين بأنهم لن يطمئنوا على صليبية الأندلس إلا إذا غزوا المغرب ، وركزوا فيه المسيحية ، فهو قريب من أوروبا ، لا يفصله عنها غير الزقاق (مضيق جبل طارق ١٥ كيلو متراً) .

وثالثتها : أن شواطىء المغرب الواسعة ـ ٣٥٠٠ كيلو متر ـ تغري بالاحتلال ، وتجعل من الصعب على دولة الاسلام في المغرب حماية هذه الشواطىء الواسعة جميعها إلا إذا امتلكت قوة برية وبحرية هائلة .

ورابعها : أن المغرب كان طريقا لافريقيا ، وإلى الشرق العربي ، فالصحراء المغربية الجنوبية لم تكن فاصلا بين شمال القارة وجنوبها وشرقها ، بل كانت هي طريق القوافل التي تصل إلى بلاد الذهب والمواد الأولية ، ثم إن شواطئه كانت محطات ، يمكن استغلالها لاستراحة القوافل الأوروبية التي كانت تسعى للوصول إلى الشرق الأقصى (بلاد التوابل) عن طريق رأس الرجاء الصالح .

وقد كانت البرتغال من بين الدول التي استفادت من عصر النهضة ، فانطلقت لجوب البحار ـ المحيط الأطلسي على الأخص ـ للالتفاف حول القارة الافريقية إلى أرض الهند وجزر المحيط الهندي ، وإلى الخليج العربي .

وخامسها : أن اسبانيا والبرتغال قد اقتسمتا المسؤولية بتوفيق من البابا ، بعد أن كاد النصر المتوالي في الأندلس يعصف بوحدة الصليبيين ، وقد قسم البابا بينهما المسؤولية فمنح اسبانيا حق احتلال ما يقع في شرقها من جنوب البحر الأبيض ، ولذلك اتجهت إلى الجزائر وتونس وليبيا ، ومنح البرتغال حق احتلال ما هو غربي هذه المنطقة من أرض الاسلام ابتداء من المغرب ، فاتجهت إلى شواطئه الشمالية على البحر الأبيض ، وإلى شواطئه الغربية على المحيط الأطلسي ، ومنها إلى غرب افريقيا ، وبها

ممالك ودول إسلامية ، ثم إلى جنوبا في الطريق إلى المحيط الهندي ، أما المغرب غير الاسلامي فلم يكن مما يحتكم فيه إلى البابا ، ولذلك اتجهت اسبانيا إلى العالم الجديد ، إلى أمريكا ، حيث المناطق الغنية بالذهب ، وفي هذه الفترة ـ خاصة ـ اكتشف كريستوفر كولومبوس الأرض الجديدة ، بمساعدة ملك اسبانيا وملكتها ايزابيلا الكاثوليكية .

سادسها : أن اسبانيا والبرتغال كانتا تستهدفان من الهجوم على المغرب هدفين متوازيين : أولهما تنفيذ وصية ايزابيلا بالقضاء على الاسلام أينما وجد ، وهي تعرف أن الأرض التي انطلق منها إلى الأندلس أرض المغرب ، وأن الأرض التي لجأ إليها المسلمون الأندلسيون الذين قد يعود بهم الحنين إلى أرضهم فيعيدون الكرة ويسترجعون بلادهم هي المغرب أيضا ، ومن وصايا ايزابيلا الكاثوليكية احتلال بلاد المغرب ، وتحويل المغاربة المسلمين إلى مسيحيين ، ورفع علم الصليب في الديار المغربية بدلا من علم الهلال الاسلامي ، ولذلك يجب القضاء على الاسلام فيه ، كما قضي عليه في الأندلس . وثانيهما : القضاء على الكيان الاقتصادي الذي بناه المغاربة ، حيث لعبت بلادهم دورا مهما في التجارة الافريقية التي كانت تصل إلى اوروبا عن طريق المغرب وافريقيا ـ كما نعرف ـ بلد المواد الأولية والعاج والذهب .

تلك بعض الظروف التي مهدت لانتقال الحروب الصليبية الغربية من الأندلس إلى المغرب .

فما هو حظ المغرب من هذه الحروب ؟

وبدأ الغزو والاحتلال

المغرب كما عرفنا كان هو الدرع الحصين للاسلام في الأندلس ، وكان هو الجبهة الموالية بعد سقوط الأندلس في أيدي الغزاة الصليبيين ، وكان لا بد أن تنتقل إليه المعركة إذا أرادت الصليبية أن تطمئن إلى مصيرها في أوروبا ، فهي لم تنس أن العرب والمسلمين في المغرب قد دقوا أبواب بواتيه في قلب بلاد الغال ، كما دق العرب والمسلمون في المشرق أبواب فيينا .

وبدأ الهجوم على المغرب ، وكانت المعركة الأولى احتلال إحدى بواباته المهمة على البحر الابيض وهي سبتة ، وقد احتلها البرتغال في هجوم غادر سنة ٨١٨هـ ـ ١٤١٦م وسلموها بعد ذلك إلى اسبانيا ، باتفاق بين الدولتين سنة ١٠٨٠هـ ، بعد أن حاصروها ست سنوات . واستمر هجوم الدولتين على أرض المغرب الكبير ، فاحتل الاسبانيون بجاية في الجزائر سنة ١٥٠٤م ، والمرسى الكبير سنة ١٥٠٥ ، ووهران سنة ١٥٠٨م . وفي نفس السنة احتلوا جزيرة بادس بالمغرب وحاصروا الجزائر العاصمة ، ودمروا ميناء طرابلس سنة ١٥١٠ ، واحتلوا وهران وتلمسان سنة ١٥٤٢ ، وكانوا في نفس الوقت يطاردون المسلمين الهاربين من الأندلس وهم يتجهون بحرا إلى المغرب والجزائر وتونس ، فكانوا يقضون عليهم في البحر . وقد كون المغرب أسطولا مهما لحماية هؤلاء المسلمين ، حتى يصلوا إلى شاطىء الأمان ، واشتبك هذا الأسطول مع البحرية الاسبانية والبرتغالية في معارك طاحنة ، أظهرت ـ من جديد ـ قوة المغرب واستمراره في الدفاع عن الاسلام ، وزادت مخاوف الصليبيين التي كانت تراودهم من المغرب ، فازدادوا إصرارا على احتلال المغرب ، وتنفيذ وصية ايزابيلا الكاثوليكية بالقضاء عليه كدولة ، وتنصير من سيبقى من أبنائه .

اتجه البرتغاليون إلى احتلال الشواطىء المغربية مبكرا ، قبل أن تسقط آخر معاقل الأندلس ، وذلك ليعملوا على تطويق الأندلس التي كانت شمس الاسلام قد بدأت تغرب عنها ، وكانوا مدفوعين إلى ذلك بنفس الفكرة التي شرحناها ، أي أن يقطعوا الامداد الاسلامي المغربي عن الأندلس ، باحتلال الشواطىء المغربية ، وإشغال المغرب عن واجبه في الدفاع عن الاسلام في شبه الجزيرة الايبرية .

وكان من ذلك دخولهم إلى مدينة « سلا » ، وهي من أقدم المدن الحضارية في المغرب على الشاطىء الأطلسي (تقع بجوار الرباط ويفصل بينهما نهر أبي رقراق) . وقد دخلوها غدرا مستهزين فرصة نزاع على السلطة بين المسؤولين ، وذلك سنة ٦٥٨ (١٢٦٠م) ، ثم أجْلَوا عنها بالقوة بعد مدة قصيرة ،

وبعد عشر سنوات أي في سنة ٦٦٨ (١٢٧٠ م) هاجموا مدينة « العرائش » على الشاطىء الأطلسي ، ودمروها وأحرقوها .

واتخذوا مدينة « سبتة » رأس جسر لمهاجمة الشواطىء المغربية الأطلسية ، على نحو ما تم الاتفاق عليه بينهم وبين اسبانيا ، وحاصروا مدينة طنجة سنة ٨٤١ (حوالي ١٤٣٥) ، لكن المغرب دافع عن المدينة العنيدة بموقعها الاستراتيجي المهم ، ودارت معركة ضارية مع الجيش البرتغالي انهزم فيها البرتغال بقيادة « فرناندو » وأسر الجيش المغربي القائد البرتغالي فيمن أسر من الضباط والجنود ، ثم حاول البرتغاليون تحرير أسراهم فاشترط المغرب لذلك الجلاء عن « سبتة » ، فقبل البرتغاليون ، لكن « فرناندو » مات في السجن ، وكان ذلك من سوء حظ المغرب فلم تتحرر سبتة ، واغتنم البرتغاليون الفرصة فهاجموا مدينة طنجة واستولوا عليها ، وقد ظلت تحت قبضتهم ٢٦٥ سنة ، وسلموها سنة ١٠٧٢ ، ١٦٦٢م لانجلترا في عملية مصاهرة يوم بدأت انجلترا تمد سلطانها لتتخذ من المدينة المغربية ومركزها الاستراتيجي المهم ، وقبل أن يحتل جبل طارق المقابل لطنجة على الشاطىء الأوروبي، لتتخذ منه البرتغال محطة للالتفاف حول افريقيا في طريقهم إلى المحيط الهندي ، بحثاً عن المستعمرات الغنية . وقد استرجعها المغرب بعد ذلك من انجلترا سنة ١٠٩٥ ـ ١٦٨٤ .

نستخلص من كل ذلك أن الهجوم البرتغالي على الشواطىء المغربية لم يكن ليحدث لو أن الدولة تقوقعت على نفسها ، وتركت الأندلس لمصيرها ، ولم تستجب للنداءات التي كانت تصدر من حين لآخر من الأمراء والعلماء ومجموع المواطنين المسلمين الذين كانت الصليبية تُطبق عليهم بالحصار ، حتى إذا نفذ زادهم من المقاتلين ومن السلاح والأقوات استسلموا ، إلا أن يتجدهم المغرب ، وهو البلد الوحيد الذي نهض بهذه المسؤولية الاسلامية في الغرب الاسلامي .

وحينما خلفت الدولة السعدية الدولة المرينية في أوائل القرن السادس عشر كان في مقدمة مهماتها تجنيد الشعب لمقاومة الاحتلال البرتغالي ، فاستجاب الشعب ، ونهض بالمسؤولية ، وخاض المغرب حروبا طاحنة ضد البرتغال ، واسترجع كل الشواطىء الأطلسية بين سنتي ٩١٥هـ (١٥١٠م) و ٩٨٥هـ (١٥٧٧) ، ولم تبق من المدن المحتلة إلا « سبتة » و « طنجة » و « الجديدة » .

لكن البرتغال لم تستسلم ، بل صممت على القيام بحملة كبرى ، واستنفرت فيها قوات من كل الدول المسيحية في غرب أوروبا ، وبارك البابا هذه الحملة التي قام بها الملك البرتغالي سيباستيان ، وقادها ، واستعد المغرب لمواجهة الحملة التي اختارت لها البرتغال « وادي المخازن » بالقرب من العرائش ، وقاد جيوش المغرب الملك السعدي عبد المالك وأخوه أحمد الذي دعي فيما بعد بالمنصور الذهبي ، وتطوع في المعركة آلاف من المواطنين ، إلى جانب الجيش النظامي ، يتقدمهم العلماء والمثقفون والطلاب ، ووقعت معركة ضارية قتل فيها سيباستيان ، واستشهد عبد المالك ، وقتل أخ له كان يطمع في الملك ، والتجأ إلى البرتغال ليحوض معه المعركة طمعا في أن يلي الملك إذا انهزم أخوه ، وعرفت المعركة في التاريخ بمعركة الملوك الثلاثة .

وكانت هذه المعركة نهاية المجد البرتغالي ، فعادت البرتغال إلى آخر الصف بين الدول التي تتطلع إلى احتلال العالم الثالث واستعماره .

أما المدن الاربع التي بقيت تحت سلطة الاحتلال الصليبي فقد استرجع المغرب منها « الجديدة » ، من الاستعمار البرتغالي ، وطنجة من الاستعمار الانجليزي ، بعد حصار طويل ، ومعركة ضارية سنة ١٠٩٥هـ (١٦٨٤م) ، وبقيت بيد الاستعمار الصليبي مدينتان ، تمتازان بمركز استراتيجي مهم ، هما سبتة ومليلية اللتان تحتلهما اسبانيا حتى الآن كشاهد على المعركة الصليبية التي خاضها المغرب ضد ثلاث دول كبرى ، هي اسبانيا والبرتغال وانجلترا ، وأضيفت إليها في العصر الحديث دولة رابعة هي فرنسا ، والتي ما تزال مستعمرة حتى الآن □